الجفاف يضرب العالم

نشر في جريدة أخبار الخليج 28 أغسطس 2022

بقلم: الدكتور زكريا الخنجي

ربما لم تكن دول العالم وخاصة العالم الغربي جادًا في تناول موضوع تأثيرات تغير ظاهرة المناخ على البشرية والكرة الأرضية، ولكن ما إن ضرب الجفاف أنهار دول أوربا حتى بدأت وسائل الإعلام الغربي تصرخ وتستغيث طلبًا المساعدة وربما المغفرة.

في ذات سنة كنا في ندوة – أعتقد – حول موضوع التنوع الحيوي وتأثير التغيرات المناخية وما إلى ذلك، وأثناء الحوار والمناقشات دار موضوع حول موقع دول مجلس التعاون وتأثيراتها والأمور المتعلقة بمثل هذه الموضوعات التي تثار دائمًا في كل ندوة واجتماع، وكأن المطلوب من دول الخليج العربي أن تتصدى لكل مشاكل العالم، فطلبت الإذن بالكلام، وإذا لم تخني الذاكرة أعتقد أني قلت للمتحدث: "إننا في دول الخليج نعاني أيضًا من الكثير من المشاكل البيئية وما إلى ذلك، ومن أكبر التحديات التي تواجهنا هي (شح المياه)"، ثم واصلت كلامي وقلت للمتحدث: "وفي المقابل أنتم لا تعانون من شح المياه فلديكم الأنهار ومعدل الأمطار السنوية لديكم عال ..." وما إلى ذلك من موضوع.

قال المتحدث: "لا نريد الأنهار ولا الأمطار.. لنتبادل.. أعطونا نفطكم ونحن نعطيكم كل المياه التي لدينا".

وها نحن اليوم، نرى أن كل تلك المياه جفت وتطايرت، وعلى الرغم من ذلك لم ينالوا النفط.

ووفقًا لتقرير صادر عن خدمة العلوم والمعرفة التابعة للمفوضية الأوربية صدر في 22 أغسطس 2022 أن الجفاف يهدد ما يقرب من نصف أوربا، وأوضح التقرير أنه اعتبارًا من 10 أغسطس وصل 47% من أراضي أوروبا إلى مستوى تحذير من الجفاف، بينما تتخذ 17% من المناطق التي شملها مسح حالة تأهب قصوى. وقال الباحثون إن الظروف الجافة مرتبطة بالأمطار الشحيحة وعدد من موجات الحر من مايو فصاعدًا، والتي أثرت على تصريف الأنهار على نطاق واسع في جميع أنحاء أوروبا. كما أثر انخفاض حجم المياه سلبًا على قطاع الطاقة لكل من أنظمة توليد الطاقة الكهرومائية والتبريد في محطات الطاقة الأخرى. وأشار الباحثون إلى أن الجفاف قلل بشكل كبير من حصاد المحاصيل الصيفية، مع تأثر الذرة وفول الصويا ودوار الشمس.

في تقرير نشرته (BBC) العربية في 16 أغسطس 2022 أشارت إلى أن الجفاف كشف عما يعرف (بحجارة الجوع)، وهي صخور موجودة في مجرى الأنهار ولا يمكن رؤيتها إلا عندما تكون مستويات المياه منخفضة للغاية. ولقد نُقشت عليها رسائل تركها الناس في العصور السابقة عن الكوارث التي سببها نقص المياه، في تذكير صارخ بالصعوبات التي واجهوها خلال فترات الجفاف السابقة.

وتعود هذه النقوش إلى عقود وقرون سابقة، ويعود تاريخ أقدم نقش عُثر عليه في حوض نهر (إلبه) إلى عام 1616، وهو مكتوب باللغة الألمانية.

ويُعدّ (حجر الجوع) هذا هو الأبرز بشكل خاص لأنه يحتوي أيضًا على تواريخ الجفاف الشديد على سطحه، ووفقًا لدراسة أجراها فريق من علماء الآثار التشيكيين في عام 2013، يُمكن قراءة السنوات 1417 و1616 و1707 و1746 و1790 و1800 و1811 و1830 و1842 و1868 و1892 و1893 على الحجر.

فهناك نقش على أحد الصخور يقول: "ستزدهر الحياة مرة أخرى بمجرد اختفاء هذا الحجر".

ويقول نقش آخر: "الشخص الذي رآني ذات مرة، بكى، ومن يراني الآن سيبكي".

ويقول ثالث: "إذا رأيت هذا الحجر مرة أخرى فسوف تبكي .هكذا كانت المياه ضحلة في عام 1417".

ومن الجدير بالذكر أنه في الماضي، إن وصلت الأنهار إلى هذه المستويات المنخفضة، فهذا يعني الفقر والمعاناة لكثير من الناس، إذ كان – ومازال – يتسبب الجفاف في تدمير المحاصيل، كما أدى إلى قطع الممرات المائية التي تُنقل من خلالها المواد الغذائية والإمدادات من جميع الأنواع، ثم جاءت بعد ذلك المجاعة.

في الماضي أيضًا، كانت أوروبا الوسطى، التي تضم أجزاء من النمسا والتشيك وألمانيا والمجر وبولندا وسويسرا، تعتمد على الأراضي الخصبة على طول ضفاف النهر لإنتاج الغذاء. واستخدم الصحفي الألماني أولاف كوينز موقع تويتر للإشارة إلى أن هناك كلمة باللغة الألمانية لوصف الصخور (هونغرشتاينه)، والتي تُترجم حرفيًا إلى حجارة الجوع. وجاء مصدر إلهام الكلمة من نقش وجد على أحد الحجارة يصف عام 1947 بأنه (عام الجوع).

وفي السنوات الأخيرة، أصبحت ظاهرة الجفاف واحدة من أبرز علامات تغير المناخ في وسط أوروبا.

ومن الملاحظ بحسب بعض التقارير الصحفية الأوروبية التي نشرت مؤخرًا أن أوروبا التي وجدت نفسها في خضم صراع دبلوماسي وعسكري واقتصادي وأزمة طاقة غير مسبوقة نتيجة الأزمة الروسية الأوكرانية، إذ لم تكد تلملم شتات نفسها، حتى ضربتها أسوأ موجة جفاف منذ 500 عام، أدت إلى انخفاض مستوى المياه في البحيرات والأنهار بما يهدد إمدادات مياه الري والشرب والشحن النهري، بالإضافة إلى جفاف الأراضي الزراعية وهو ما يكلفها مزيدًا من الخسائر الاقتصادية.

ومن الجدير بالذكر أن الجفاف الذي يصيب الأنهار في أوروبا يسبب اضطرابات قوية في حركة التجارة عبر الأنهار، والتي تعد عنصرًا مهمًا للنقل بين الدول الأوروبية، وتسهم بنحو 80 مليار دولار في اقتصاد منطقة اليورو، بحسب بيانات هيئة (يوروستات)، وهو مبلغ قد تفقده

ميزانية دول الاتحاد الأوروبي إذا ما توقفت حركة النقل عبر الأنهار والقنوات المائية بالمنطقة.

وفي هذا السياق، قال مستشار التحرير في منصة الطاقة، أنس الحجي، في مقابلة مع برنامج (عالم الطاقة) على قناة (سكاي نيوز عربية) إن مشكلة الجفاف في أوروبا كبيرة جداً، وإنها على المدى الطويل قد تكون أخطر من أزمة الحرب الروسية الأوكرانية والعقوبات المرتبطة بها. ويواصل: "أوروبا الآن في مأزق كبير بسبب الجفاف، وقد يكون هذا المأزق أكبر بكثير من مأزق الحرب الروسية الأوكرانية".

وفي تقرير آخر لمرصد الجفاف الأوروبي فإن التحذيرات تشير إلى أن الجفاف يؤثر حالياً على أكثر من 60% من الأراضي الأوروبية، وشهدت الأنهار الرئيسية في ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا انخفاضاً في مستوى مياهها .وعلى الرغم من ذلك، لم تكشف المياه المنخفضة في مدينة مانتوفا الإيطالية عن (حجر جوع). ولكن ما جرى اكتشافه في مجرى نهر (بو) كان قنبلة غير منفجرة من الحرب العالمية الثانية وزنها 450 كجم.

ويلاحظ أنه في الأسابيع الأخيرة، اضطرت دول مثل فرنسا وإسبانيا إلى تقييد استهلاك المياه، وفي أجزاء من كلا البلدين، اضطرت السلطات إلى قطع إمدادات المياه في ظل ظروف معينة، وكذلك أعلنت السلطات الفرنسية في السابع من أغسطس أن البلاد تواجه أسوأ موجة جفاف منذ بدء التسجيلات في عام 1958.

وفي ألمانيا، أدى انخفاض منسوب نهر الراين، الذي يتدفق من جبال الألب السويسرية إلى بحر الشمال، بالفعل إلى إجبار شركات الشحن على الإبحار بكميات مخفضة من البضائع.

وأشارت صحيفة (فاينانشيال تايمز) البريطانية، في عددها الصادر يوم الأربعاء 24 أغسطس 2022، إلى تحذيرات العديد من العلماء أن موجة الجفاف التي تتعرض لها أوروبا حاليًا قد تستمر حتى شهر نوفمبر المقبل، مما يضاعف المخاوف بشأن الغذاء والطاقة.

وذكر تقرير صدر عن مركز الأبحاث المشتركة التابع للاتحاد الأوروبي، ونقلته الصحيفة عبر موقعها الإلكتروني أن ما يقرب من نصف دول الاتحاد الأوروبي لا تزال تعاني من ظروف الجفاف، حيث من المتوقع أن يظل الطقس أكثر سخونة وجفافًا حتى نوفمبر، الأمر الذي فاقم المخاوف القائمة بالفعل بشأن نقص المحاصيل وإمدادات الطاقة في قارة تضررت من انخفاض كبير في تدفقات الغاز من روسيا. وتعليقًا على ذلك، قالت ماريا جابرييل، مفوضة البحث والابتكار بالاتحاد الأوروبي: "إن موجة الجفاف الشديدة وموجات الحر المتتالية تسببت في ضغط غير مسبوق بشأن مستويات المياه في الاتحاد الأوروبي بأكمله، ونحن نلاحظ حاليًا موسم حرائق الغابات، وهو أعلى من المتوسط، ما تسبب في تداعيات وخيمة على إنتاج المحاصيل".

كما حذر التقرير من "الآثار الخطيرة" على قطاع الطاقة وخاصة على محطات الطاقة الكهرومائية غير القادرة على العمل، بسبب انخفاض مستوى مياه الأنهار وأنظمة التبريد لمحطات الطاقة الأخرى.

وفي المقابل فقد سجلت حالات الوفاة أثناء موجات الحرارة في شهر يوليو في كل من إنجلترا وويلز ارتفاعًا في المتوسط عن بقية الشهر، إذ وصلت الوفيات في انجلترا إلى ذروتها يوم 19 يوليو 2022، وهو اليوم الذي سجلت فيه انجلترا درجة حرارة قياسية غير مسبوقة بلغت 40 درجة مئوية وبشكل إجمالي، كانت الوفيات أعلى بنسبة 7% في انجلترا أثناء الموجات الحارة، وبنسبة 12% في ويلز.

وقال التقرير إن المناطق التي تزداد فيها الظروف سوءًا هي تلك التي تأثرت بالفعل بالجفاف في ربيع عام 2022 مثل شمال إيطاليا وجنوب شرقي فرنسا وبعض المناطق في المجر ورومانيا.

فيما تأثرت المحاصيل الصيفية بموجة الحر والجفاف الحالية، حيث يتوقع أن يكون محصول الذرة في عام 2022 أقل بنسبة 16% عن متوسط السنوات الخمس السابقة، ومن المتوقع أن ينخفض محصول فول الصويا بنسبة 15% وعباد الشمس بنسبة 12%، وكذلك لحق الضرر بتوليد الطاقة الكهرومائية، وزاد التأثير على منتجي الطاقة الآخرين جراء نقص المياه اللازمة لتغذية أنظمة التبريد.

هذه بعض التقارير الصادرة من أوروبا وبعض دول العالم، ترى ماذا نحن فاعلون في الوطن العربي من جراء نقص الغذاء والمشاكل المتعلقة بتغير المناخ والأمن الغذائي وما إلى ذلك ؟ هل ما زالنا نتدارس الأمر ؟